سلسلة رسائل الفضيلة ١٦

تَأمُّلاتٌ في قولِهِ تعَالَى

﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

سلسلة رسائل الفضيلة ١٦

تأملات في قوله تعالى

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى لدار الفضيلة
(1435هـ ـ 2014م)

رقم الإيداع: 333 ـ 2014

ردمك: 2 ـ 70 ـ 866 ـ 9947 ـ 978

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

العنوان: حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر
هاتف وفاكس: 021519463
النقال: 0559069992

التوزيع: 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيِّبًا مبارَكًا فيه، كما يحبُّ ربُّنا ويرضى، اللَّهمَّ لك الحمدُ على كلِّ نعمةٍ أنعمت بها علينا في قديمٍ أو حديثٍ، أو سرٍّ أو علانيةٍ، أو خاصَّةٍ أو عامَّةٍ؛ لك الحمدُ بالإسلام، ولك الحمدُ بالإيمان، ولك الحمدُ بالقُرآن، ولك الحمدُ بالمعافاة، اللَّهمَّ لك الحمدُ بالأهل والولد والمال، اللَّهمَّ لك الحمدُ حتَّى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيتَ، وأشهدُ أن لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسوله ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعدُ:

فإنَّ موضوعَ هذه الرِّسالة يُعَدُّ من أعظم الموضوعات، وأجلِّها على الإطلاق، وهو تأمُّلٌ وتدبُّرٌ في قول ربِّنا ـ جلَّ شأنُه ـ: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهو جزءٌ مِن آية في سُورة التَّوبة؛ ومِن المُهِمِّ بين يَدي هذَا الموضوع أن نقفَ قليلًا متأمِّلين في السِّياق الَّذي وردت فيه هذه الآية إتمامًا للمعنى،

وتكميلًا للفائدة، وهُو سياقٌ اشتَمل على بيان مكانة المؤمنين العليَّة، ومنزلتهم الرَّفيعة، وما هُم عليه من جدٍّ واجتهادٍ وعمل في نَيْل مرضَاةِ الله سبحانه وتعالى، ثمَّ بيان ما أعدَّه ـ تبارك وتعالى ـ لهم من كرامات، وما هيَّأه لهم من أجرٍ كبيرٍ وثوابٍ عظيمٍ؛ قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (٧١) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٧٢) ﴾ [سورة التوبة].

فذكر ـ جلَّ وعلا ـ أوَّلًا أعمالهم من طاعةٍ لله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقيامٍ بفرائض الإسلام، وواجبات الدِّين، وعملٍ على تبيان دين الله عز وجل نصحًا لعباده، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، ثمَّ أتبعَ ذلك ـ جلَّ شأنُه ـ بذكر ما أعدَّ لهم من ثوابٍ بترتيبٍ بديعٍ؛ بدأه بذكر ما أعدَّ لهم من جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، ثمَّ ذكر

المساكن العظيمة، والغُرُفَات العليَّة الَّتي أعدَّها لهم نُزُلًا ومسكنًا في تلكم الجنَّات، ثمَّ ذكرَ الكرامةَ الكبرى، والمنَّةَ العظمى، ألا وهيَ رضوانه ـ تبارك وتعالى ـ عنهم قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، ثمَّ ختمَ السِّياق بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

ولم يذكر المفضَّل عليه بعد قوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ للعلم به، وبيانًا لِعظم رضوان الله ﷻ، وجلالةِ شأنه، وأنَّه أكبرُ من كلِّ نعيمٍ، وأجلُّ من كلِّ عَطيَّةٍ؛ وذلك أنَّ رضوان الله ﷻ صفة من صفاته ﷻ، وجنَّته وما فيها من كراماتٍ وعطايا وهباتٍ مخلوقٌ من مخلوقات الله ﷻ، فرضوانُ الله أكبرُ من الجنَّة، وأكبرُ من كلِّ نعيمٍ فيها؛ إذ هو أعظمُ كرامةٍ، وأجلُّ عطيَّةٍ.

ويوضِّحُ هذا المعنى في الآية ـ وإن كان واضحًا ظاهرًا ـ ما خرَّجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تبَارَكَ وتعالى يقُولُ لأَهْلِ الجَنَّةِ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ، فيقولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْكَ، فيقولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لنا لَا نَرْضَى، وقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا من خَلْقِكَ! فيقول: أَنَا**

أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ! فيقول: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»⁽¹⁾.

وروى الحاكم عن جابر بن عبد الله ﵄ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قال: يقولُ اللهُ ﷿: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ فيقولون: رَبَّنَا وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا؟ قال: يقولُ: رِضْوَانِي أَكْبَرَ**»⁽²⁾ أي أكبرُ من الجنَّة وما فيها.

وقال الحسن البصري: «يصلُ إلى قُلوبهم مِن رضْوَان الله منَ اللَّذَّة والسُّرُور ما هُو أَلَذُّ عندَهُم وأَقَرُّ لأعْيُنِهم مِن كُلِّ شيءٍ أصابُوه مِن لذَّة الجنَّة»⁽³⁾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ؒ: «تأمَّلتُ أنفعَ الدُّعاء فإذا هو سؤال العَوْنِ على مرضاتِه، ثمَّ رأيتُه في الفاتحة في

---

(١) صحيح البخاري (رقم ٦٥٤٩) واللَّفظ له، ومسلم (رقم ٢٨٢٩).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٥٦) وقال: «صحيحٌ على شرط الشَّيخيْن ولم يخرجاه»، ووافقه الذَّهبي، ويشهد له ما قبله.

(٣) انظر: «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمنين (٢/ ٢١٩).

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾»(١).

فطلبُ العَون من الله ﷻ على نيل مرضَاتِه ـ جلَّ شأنُه ـ هو أجلُّ مطلبٍ، وأكبرُ مَقْصَدٍ، وأَنْبَلُ هدفٍ، وأسمى غايةٍ، وأعظمُ أمرٍ شمَّر في نيله المشمِّرون، وسَعَوْا في تحصيله؛ «ولذلك كان الرضا بابَ الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عيون المشتاقين»(٢).

فينبغي على كلِّ مسلم أن يُودِع هذه الآية الكريمَةَ في قلبه، وأن يحرِصَ على حضُورِها في ذهنِه في كلِّ مقامٍ، وفي كلِّ مَوْقِفٍ، وفي كلِّ حالٍ؛ لأنَّ هذه الآيةَ إذا قامَت في القَلب، وكان ما دلَّت عليه هو هدف الإنسان، وغايته ومطلبه؛ فإنَّ أحوالَه كلَّها تصلح، وأمورَه كلَّها تزين.

وقوله ﷻ: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هذا الموضع فيه لطائفُ عظيمةٌ تدلُّ على عِظَمِ هذا الرِّضوان، ورِفعةِ شأنه، أشار إليها

---

(١) نقله عنه الإمام ابن القيِّم في «مدارج السَّالكين» (١/ ١٠٠).

(٢) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٧٤).

علماءُ التَّفسيرِ في كتبهم ـ رحمهم الله ونفع بجهودهم ـ، من ذلكم:

❊ أنَّ عطفَ الرِّضوان على ما قبله جاء عطفَ جملةٍ، ولم يأتِ عطفَ مُفرَدٍ، وهذا فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا فضلٌ مُستقلٌّ مُختلِفٌ تمامًا عمَّا ذُكِر قبلَه، وهو نعيمُ الجنَّة.

❊ ثمَّ إنَّه قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ﴾ بالتَّنكير؛ وهذا يفيد التَّعظيمَ، وفخامةَ الرِّضوان، وعلوَّ شأنه.

❊ وأيضًا جاءَ مُنوَّنًا، والتَّنوين يفيد التَّعظيم.

❊ وجاء مرفوعًا كرفعةِ شأن الرِّضوان، وعُلُوِّ شأنه.

❊ ثمَّ إنَّه ـ جلَّ شأنُه ـ قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل: «منهُ»؛ وفي إظهار اسم الجلالة في هذَا المقام إيماءٌ إلى عظمَة هذَا الرِّضوان المضافِ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

❊ ثمَّ إنَّه ـ جلَّ شأنُه ـ قال: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ ولم يَقُل: «رضَا»؛ والفَرقُ بينَ الرِّضوان والرِّضا: أنَّ زيادةَ المبنى ـ كما يقولُ أهلُ العلم ـ فيه زيادة المعنَى، فزيادةُ الألفِ والنُّون تدلُّ على قوَّة هذَا الرِّضوان وكثرتِه وعِظمِه وجلالتِه.

* ثمَّ إنَّه قال: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ولم يقل: «ورضوانُ الله أكبَر»؛ وهذَا ـ أيضًا ـ فيه لطيفةٌ عظيمةٌ، ألا وهي: أنَّ هذا الرِّضوان وإن قلَّ وإن كان يسيرًا في حقِّ عبدٍ ما، فهو أعظمُ من الجنَّة وما فيها، وليس في رضوان الله ﷻ ما هو يسيرٌ كما قيل:

قليلٌ منكَ يكفِيني ولكِن ... قليلُكَ لا يقالُ لهُ قَليلُ

كلُّ ذلك يدلُّنا على عِظَمِ هذا المقصد، وجلالة هذا المطلب، وأنَّه أعظمُ مبتغى، وأجلُّ غايةٍ، وأنبلُ هدف، وأنَّ الواجبَ على المسلم العاقل الحصيف أن ينهض بنفسه نهوضًا عظيمًا قبل أن يفوتَه هذا الخير العَظيم، والفَضل العَميم.

والواجبُ على مَن اشتَاقَت نفسُه لهذا الرِّضوان، وتاقتْ لهذه المنزلة العليَّة، ورغبَتْ في هذا الأجر العظيم أن يُعِدَّ لهذا الأمر عُدَّتَه، وأن لا يشغَلَهُ عنه أيُّ شاغلٍ، وربُّنا ـ جلَّ شأنه ـ أخبرنا في مواضع من القُرآن الكريم بأنَّ ثمَّةَ شواغِلُ كثيرةٌ جدًّا تُشْغِلُ العبدَ عن نيل هذا الرِّضوان، وتعُوقُه عن تحصِيله؛ فلا يزال يتعَثَّرُ إلى أن يفوِّت على نفسِه حظَّهُ ونَصيبَهُ من هذا الرِّضوان العَظيم.

ولنتأمَّل في هذا المعنى قولَ الله سبحانه وتعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ (١٤) قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (١٥) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (١٧) ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ]؛ فهؤلاء الَّذين تبوَّؤوا منازلَ الرِّضوان، وفازوا بهذا الأمر العظيم، والمطلب الجليل، سبقه رضا منهم عن الله سبحانه وتعالى، وجِدٌّ واجتهادٌ في طاعة الله عز وجل، كما يوضِّحُه هذا السِّياق وغيرُه ممَّا جاء في كتاب الله، ولم تشغلْهُمْ تلك الشَّواغِلُ عن نيل الرِّضوان.

ومثلُ هذه الآية في التَّحذير من الشَّواغل الَّتي تَشْغَلُ الإنسان وتعوقُه عن نَيْل هذَا الرِّضوان قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (٢٠)﴾ [سُورَةُ الحَدِيدِ]؛ فيأتي ذكرُ الرِّضوان في مثل هذه المقامات تنبيهًا للعباد؛ ليتَنَبَّه مَن أراد لنفسه هذا المطلَبَ العظيمَ، والمقصدَ الجليلَ، ألَّا تشغلَه هذه الشَّواغل، وأن لا تُلْهِيَهُ هذه المُلْهِيَات بأن تكون صارِفةً له عن نيل هذا الرِّضوان العظيم، وتحصيله والفوز به.

وتحقيق هذا الرِّضوان والظَّفرُ به يتطَلَّبُ من العبد أمورًا عديدةً جاءت مبيَّنَةً في كتاب الله ﷿، وسنَّةِ نبيِّه ﷺ إلَّا أنَّها في الجملةِ ترجع إلى أَمْرَيْنِ عظِيمَيْنِ، وأَصْلَيْنِ مَتِينَيْنِ ينبغي على كلِّ ناصِحٍ لنفسه أن يُعنَى بهما أَشدَّ العناية، وأن يهتَمَّ بهما عظيمَ الاهتمام:

الأمر الأوَّل: ابتغاء الرِّضوان؛ وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٢٠٧)﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٦٥]، ويقول جلَّ وعلا: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ

أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد : ٢٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ.

والأمر الثَّاني: اتِّباع الرِّضوان؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ].

فتحصَّل لنا ممَّا سبق في نيل رضوان الله وتحصيله: أن يَجْمَعَ العبدُ لنفسه بين هذين الأمرين العظيمين والأصلين المتينَيْن.

❖ **الأوَّل**: ابتغاءُ الرِّضوان، ومعنى ابتغاء الرِّضوان الإخلاصُ في الأعمال وحُسن التَّوجُّه للرَّبِّ سبحانه وتعالى ذي الجلال والكمال؛ بحيث يكون العامل مُخْلِصًا في عمله يرجو به ثوابَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والدَّار الآخِرَةَ؛ لا يبتغي شيئًا في أيِّ عملٍ يُقدِّمُه إلَّا نيل الرِّضوان ؛ ولن يكونَ في صالح عمل العبد إلَّا ما قَصَدَ به العبدُ

وجهَ الله ﷻ، أمَّا الأعمال الَّتي قامت على الرِّياء ـ مثلًا ـ والسُّمعة وحبِّ الشُّهرة وحبِّ الظُّهور وحبِّ علُوِّ الصِّيت وحبِّ الذِّكر إلى غير ذلك من الأغراض، فكلُّها لا تقرِّب العبدَ من رضوان الله.

وإنَّما الَّذي يقرِّبُ العبدَ من الرِّضوان ما ابتغى به من عمله رضوانه ﷻ، وما سوى ذلكَ، فإنَّ الله لا يقبَلُهُ منه، وإنْ عَظُمَ العملُ وكَبُرَ؛ ولهذا قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فيه معِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»⁽¹⁾.

❖ **الثَّاني**: اتِّباع الرِّضوان؛ بأَن يحرِصَ العاملُ على الأعمال الَّتي جاء بها النَّبيُّ الكريم ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ؛ فإنَّ رضوانَ الله ﷻ لا يُنال إلَّا بلزوم دينه الَّذي رَضِيَهُ لعبادِه، وبعثَ به رسولَه ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]؛ فهذا الدِّينُ الَّذي رَضِيَهُ الله ﷻ لعباده هو الَّذي يُتَّبع؛ ليُنال باتِّباعه رضوانُ الله

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سبحانه وتعالى، وعليه فالآيات الَّتي مرَّ ذكرُها في أكثرَ مِنْ مَوْضِعٍ من كتاب الله عز وجل ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يُراد بها هذا المعنى؛ أن يَلْزَمَ المسلمُ الأعمالَ الَّتي رَضِيَها سبحانه وتعالى وبعثَ بها رسولَه ﷺ، ولهذا نقل شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله في بعض كُتُبِه عن بعض أهل العلم أنَّه قال: «مَنْ أرادَ أن يبلغَ مَحَلَّ الرِّضَا فلْيَلْزَمْ ما جعلَ اللهُ رضاه فيه».

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «هذا الكلام في غاية الحُسْنِ؛ فإنَّه مَنْ لَزِمَ ما يُرْضِي اللهَ من امتثالِ أَوامِرِه، واجتنابِ نَواهِيهِ لا سيَّما إذا قام بواجبها ومستحَبِّها؛ فإنَّ الله يرضى عنه»(١).

فمَن أراد لنفسه محلَّ الرِّضوان يوم يلقى الله سبحانه وتعالى فلن يجِدَ ذلك إلَّا باتِّباع النَّبيِّ الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولزوم نهجه القَويم.

فبهذيْن الأصليْن؛ ابتغاءُ الرِّضوان واتِّباعُ الرِّضوان، يفوزُ العبدُ برضا الله سبحانه وتعالى، وعظيمِ موعوده، وجميعُ الآيات الَّتي وردت في هذا المعنى كلُّها تَرْجِعُ إلى هذينِ الأصليْن المَتِينَيْن، وفيهما يقول الفُضَيْلُ ابنُ عياض رحمه الله في تفسيره لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٨١، ٦٨٦)، «الاستقامة» (٢/ ٧٤).

عَمَلًا﴾ [هود: ٧] قال: «أخلَصُهُ وأصْوَبُه»، قيل: يا أبا عليٍّ! وما أخلصُه وأصوبُه؟ قال: «إنَّ العَمَلَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقْبَلْ؛ حتَّى يكونَ خالِصًا صوابًا، والخالصُ ما كان لله، والصَّوابُ ما كان على السُّنَّة»(١).

وقد جُمع بين هذيْن الأصلَيْن في آياتٍ؛ منها الآيةُ الَّتي خُتِمَتْ بها سورةُ الكهف، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [سورة الكهف] وهذا اتِّباعُ الرِّضوان ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ وهذا ابتغاءُ الرِّضوان بإخلاص العمل لله ـ جلَّ وعلا ـ.

وعلى المؤمن في هذا المقام العَظيم أن يكونَ مُسارِعًا للخيرات لا أن يكون مُتَقَاعسًا مُتوانِيًا مفرِّطًا مُضيِّعًا مسوِّفًا، وليكُنْ رائدُه في هذَا الباب وقدوُته فيه أنبياءَ الله ورسله ـ عليهم صلواتُ الله وسلامُه ـ، ومن الأمثلة العظيمة في

---

(١) رواه ابن أبي الدُّنيا في «الإخلاص والنِّيَّة» (ص٥١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

ذلك قول الله سبحانه وتعالى عن نبيِّه موسى عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة طه]، أخذَ أهلُ العلم من هذه الآية، ومنهم شيخُ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله أنَّ الأصلَ أن يُسارع العَبدُ في نَيْل مرضاةِ الله لا أن يسوِّف، أو أن يؤجِّل، أو أن يؤخِّر، فكم من أُناسٍ أخَّروا أعمالًا يُنال بها رضوانَ الله سبحانه وتعالى فداهمهم الموتُ، وباغتَهم الأجَلُ قبل أن يُحقِّقُوا تلك الأعمال، وقبل أن يَفُوزُوا بتلكَ الخصَال.

فالواجبُ على العَبد أن يكونَ ساعيًا في الرِّضوان، مُسارعًا إلى نيله، جادًّا ومُجتهدًا في تحصيله، ويكون دأْبه دائمًا وأبدًا التماسُ الرِّضوان.

وقد روى الإمام أحمد رحمه الله عن ثوبان رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ الله ولَا يَزَالُ بِذَلِكَ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي، أَلَا وإِنَّ رَحْمَتِي عليه، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ الله على فُلَانٍ، ويَقُولها حَمَلَةُ العَرْشِ، ويَقُولُها مَنْ حَوْلَهم، حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ** ـ أي رحمة

الله ﷻ ـ له إلى الأَرْضِ»(١).

وعندما يكون الحديث عن رضوان الله، وسُبل نيله ينبغي أن يستَحضر في الذِّهن قُدوات العباد ممَّن فعلًا شمَّروا في حياتهم عن ساعد الجدِّ، وعملوا على تحقيق الرِّضوان، ونيله، ولم تَشغَلْهم توافهُ الأمور، وحقيرُ الأشياء عن نيل رضوان ربِّهم ﷻ؛ ولهذا إذا كان الحديث عن رضوان الله ﷻ ونيله؛ فإنَّ الذِّهن ينتقِلُ مباشَرَةً بعد حياة الأنبياء المديدة، وتاريخهم العَظيم في نيل رضوان الله ﷻ إلى حياة الصَّحابة ﭫ فهي حياة ذكرَ الله ﷻ شأنها في كتابه مُبيِّنًا في مواضع عديدةٍ رضاه عنهم ورضاهم عنه، وهذه ـ والله ـ مكرُمةٌ عظيمةٌ، وشرفٌ جليلٌ؛ بل إنَّ ذكرَ هذا الرِّضوان جاء في التَّوراةِ قبل خَلْقِ الصَّحابة ﭫ، وقبل أن يَدرجُوا على الأرض، وفي هذا يقول ﷻ:

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣٧/ ٨٧ رقم ٢٢٤٠١)، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، ورجاله رجال الصَّحيح غير ميمون بن عجلان، وهو ثقةٌ» «مجمع الزَّوائد» (١٠/ ٢٠٢)، وميمون بن عجلان هذا ذكره ابن حبَّان في «الثِّقات» (٧/ ٤٧٣)، فلعلَّ الهيثمي اعتمد على توثيقه له، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٤٦٢): «أخرجه أحمد والطَّبراني في «الأوسط»، ويشهد له حديث أبي هريرة الآتي في الرِّقاق ففيه: «**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**» الحديث».

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [سورة الفتح]؛ فهم قبل أن يُخلَقُوا، وقبل أن يُوجَدُوا ذَكَرَهُمُ الله سبحانه وتعالى في التَّوراة هذا الذِّكرَ العطرَ العظيمَ، كما أنَّه ذَكَرَهُمْ في الإنجيل بقوله ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾؛ فهؤلاء الكرام رضي الله عنهم حقَّقوا هذا الأمرَ، وبلغوا فيه الرُّتبةَ العليَّةَ، فكانوا في تحقيقه في الدَّرجةِ الثَّانيةِ الَّتي تلي الأنبياء في تاريخ الأمم كلِّها، فلا كان ولا يكونُ مِثْلُهُمْ بعد الأنبياء، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»[1]، وهذه الخيريَّة

---

[1] أخرجه البخاري (رقم ٢٦٥٢، ٣٦٥١)، ومسلم (رقم ٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

هي خيريَّةٌ في جميع أمم الأنبياء؛ ولهذا فيما يتعلَّق بأفضل الصَّحابة قال ﷺ: «**أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ سَيِّدَا كُهُولِ أَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، مَا خَلَا النَّبِيِّينَ والمُرْسَلِينَ**»⁽¹⁾.

فشَرَفُ هؤلاء وفضلُهم ونُبلُهم وعُلوُّ قَدرهم ورفعةُ مكانتِهم ليست رُتبةً أو فضلًا حازُوه على هذه الأمَّة فقط، بل هي رتبةٌ حازوها على مستوى جميع الأمم بعد النَّبيِّين؛ لأنَّ تاريخَهم كلَّه تاريخٌ مجيدٌ في تحقيق الرِّضا ونيله، وجدٌّ في هذا المطلب العظيم وتحصيلِه؛ ولهذا تمرُّ مواقف عظامٌ هي مِحَكٌّ في الفَوز بالرِّضا وتحصيله، فيتَسابقون لذلك، ويتنافسون عليه، ويبادرون، وتنزل الآياتُ فورًا في كلِّ موقفٍ بإعلان رضا الرَّبِّ ﷻ عنهم، ففي غزوة أُحُد ـ على سبيل المثال ـ لمَّا انتهت، ومضى المسلمون، وعاد المشركون في طريقهم إلى مكَّةَ، وكان المسلمون في مُصَابهم وفيهم من هو مُثْخِنٌ بجراحه، يعلنُ النَّبيُّ ﷺ على الجميع فورًا ملاحقةَ المشركين.

---

(1) أخرجه التِّرمذي (رقم ٣٦٦٦،٣٦٦٥)، وابن ماجه (رقم ٩٥)، وأحمد (رقم ٦٠٢)، وغيرهم، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٨٢٤).

ولك ـ أخي المسلم ـ أن تتصوَّرَ تلك الحال بتلك الجِراح، وتلك الدِّماء، وذلك التَّعب، وذلك النَّصَب، فما تَخَلَّفَ منهم واحدٌ؛ تسارعوا وبادَروا، وقالوا: سمعًا وطاعةً، وقَصَر النَّبيُّ ﷺ ذلك على مَن شهد أُحُدًا، وانطلقوا معه إلى حمراء الأَسَد(١) إلى جهة جنوب المدينة، وفيهم نزل قوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ (١٧٣) فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾ [سورة آل عمران]، هذا العمل اتِّباعٌ لرضوان الله سبحانه وتعالى بشهادة ربِّ العالمين لهم ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (١٧٤)﴾؛ أي أنَّه مَنَّ عليهم بهذا الفضل، وأكرمهم سبحانه وتعالى.

قال أهل العلم: ففازوا بأجرِ غزوةٍ كاملةٍ مع أنَّهم لم يَلْقَوْا عدوَّهم، بل ألقَى الله سبحانه وتعالى في قلوب الَّذين كفروا الرُّعبَ، ففرُّوا إلى مكَّةَ مُنْهَزِمِين.

وفي وقعة صُلح الحُدَيبية دعا النَّبيُّ ﷺ أصحابه وبايعهم

---

(١) موضع على ثمانية أميال من المدينة؛ عشرين كيلو مترًا تقريبًا، إليه كان المنتهى في طلب المشركين يوم أُحُدٍ، انظر «معجم البلدان» (٢/ ٣٠١).

تحت الشَّجرَة، وكانوا يزيدون على ألفٍ وأربعمِائَة، بايعهم على القتال حتَّى الموتِ، فبايعوه جميعًا ما تردَّدَ منهم أحدٌ، وما أَنِ انتهى هؤلاء من تلك البيعةِ العظيمةِ إلَّا ونزلَ قول الله سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [سُورَةُ الفَتْحِ] أي فتح خيبر والمغانم الكثيرة الَّتي أكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها وأَظْفَرَهم بها.

وهكذا تتوالى مواقفُ الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في المسارعة لنيل رضوان الله.

وخيرُهم في هذا الباب صدِّيقُ الأمَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولمَّا ذكَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعذَّب، انطلق أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واشتراه وأعتقَه، وأعْتَقَ ستَّةً آخرين كلُّهم يعذبون في الله وفي ذات الله.

وفيه نزل قولُ الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾(١) [سُورَةُ اللَّيْلِ] أي يرضيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأنَّه سارعَ

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطَّبري (٢٤/ ٤٧٩).

وبادَر لنَيْل مرضَاة الله سبحانه وتعالى، فكانت مرضاةُ الله غايةَ مقصودِه، ونهايةَ مطلوبِه رضي الله عنه وأرضاه.

الله أكبر!! وتتويجًا لهذا المقام الشَّريف والمنزلة العليَّة، الَّتي جعلها الله لهم ـ وهي رضا الله عنهم ـ لنتأمَّل كيف أنَّ الله سبحانه وتعالى فتَحَ للأمَّة إلى زماننا هذا إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها بأنْ لا يُذكَرَ صحابيٌّ إلَّا ويُقْرَنُ بذكره الدُّعاء له بالرِّضَا «رضِيَ اللهُ عنه»، حتَّى إنَّ الإنسانَ إن سها وذكر صحابيًّا دون التَّرَضِّي عنه رُبَّما نُبِّه، قيل: لمْ تترضَّ عنه، رضي الله عن الصَّحابة أجمعين ورزقنا بحبِّهم نيلَ رضوانه.

الله أكبر!! أصبحَ الدُّعاء لهم بالرِّضا قرينًا لذكر أسمائهم في كلِّ الأزمان، بل في كلِّ يومٍ من أيَّام المسلمين من تاريخ الصَّحابة إلى يومنا هذَا إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها، فكَمْ يُدعَى للصَّحابة بالرِّضوان في كلِّ يوم؟ أهو ألف مرَّةٍ!! أو آلاف!! أو ملايين!! لا يحصي ذلكَ إلَّا اللهُ جل جلاله.

وهذا الفتحُ الَّذي فتحَهُ الله سبحانه وتعالى على الأمَّة دعاءً للصَّحابة رضي الله عنهم بالرِّضوان إنَّما هيَّأَهُ سبحانه وتعالى ووفَّق المُسلمين للعنايَة به، والمحافظة

عليه؛ إعلاءً لمقامِ الصَّحابة رضي الله عنهم في نيل رضوانِ الله سبحانه وتعالى.

والله عز وجل إذا فتح لعباده باب الدُّعاء فتحت لهم أبواب الرحمة وأعطاهُم سؤلهم ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، ودعوةُ الأخ لأخيه في ظَهر الغَيب مُستَجابةٌ، فكم هي هذه الدَّعواتُ الكثيرةُ الَّتي يَلْهَجُ بها المؤمنونَ عبر تاريخهم وأيَّامِهِمْ للصَّحب الكِرَام، وكم هو هذا الرِّضوان العظيم الَّذي فاز به الصَّحبُ الكرام رضي الله عنهم.

وعندما يتحدَّثُ المسلم عن الصَّحابة ومكانَتِهم ورضوانِ الله سبحانه وتعالى عنهم رضي الله عنهم وأرضاهم، لا ينبغي أن يكون حديثُه في هذا الباب حديثًا مُجرَّدًا عن النُّهوض بالنَّفس للاقتداء والائتساء بهم رضي الله عنهم، فإنَّ الإنسانَ بهذا لا يستَفيد من مُطالَعَةِ تاريخهم ولا مِن قراءة سِيَرِهم، وإنَّما تتحقَّقُ الفائدةُ إذا جُعل الصَّحابةُ رضي الله عنهم قُدوةً يَقرَأُ تاريخَهم المجيد، وحياتَهم الكريمةَ؛ ليَأْتَسِيَ بهم فعلًا ليفوز بالرِّضوان، وهذا المعنى مُقرَّرٌ في قول ربِّنا سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فأشرك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الَّذين اتَّبعوا الصَّحابةَ بإحسانٍ بالرِّضا عنهم؛ فحظُّ العبدِ مِنْ رِضا الله سُبحانه وتعالى بحسب حظِّه مِنْ هذا الاقتدَاء بمَن رضيَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم وأخبر برضاه عنهم في مواضعَ عديدةٍ من كتابه عَزَّ وَجَلَّ.

ثمَّ لا يفوتُ التَّنبيهُ في هذَا المقام أنَّ مَنْ يكون في قلبه شيءٌ من الغِلِّ أو الحِقْدِ أو الضَّغينةِ أو البُغْضِ أو السَّخائم تجاهَ أصحاب النَّبيِّ ﷺ ـ والعياذ بالله ـ عمومًا أو أفرادًا، أنَّه أمارةٌ بيِّنةٌ، وعلامةٌ واضحةٌ على فوات نصيبِه من رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخسرانِه في هذَا الباب الخسرانَ العظيمَ؛ إذ كيف يكونُ قومٌ هذا شأنُهم، وتلك مكانَتُهم، ورَبُّ العالمين يُعلِنُ رضاه عنهم في مواضعَ عديدةٍ من كتابه، ثمَّ يكون في قلب مؤمنٍ سخيمةٌ أو غِلٌّ أو حِقْدٌ على أحدٍ منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم؟! فضلًا عن حال مَنْ يُشغِل نفسَه وأوقاتَه وأيَّامَه بلَعْن الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وبعضُهم يجعل ذلك وِردًا يومِيًّا يحافظ عليه إمعانًا في الكراهية والبغضاء للصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولا سيَّما خيارِ الصَّحابة، وخصوصًا أبي بكرٍ وعمر وعائشة وحفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

ألا شاهت الوجوه!! ألا ما أعظمَ الخسران!! وما أَبْعَدَ هؤلاء عن الرِّضوان، على أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم لا يَضُرُّهم لَعْنُ لاعنٍ ولا طَعنُ طاعنٍ، بل إنَّ الأمرَ كما روى جابر ابن عبد الله رضي الله عنه، قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: إنَّ ناسًا يتناولون أصحابَ رسولِ الله رضي الله عنهم حتَّى إنَّهم ليتَناولون أبا بكر وعُمَر، فقالت: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ هذا؟! إنَّما قَطَعَ عنهم العملَ، فأَحَبَّ اللهُ أنْ لا يَقْطَعَ عنهم الأجرَ»⁽¹⁾.

فهؤلاء السَّبَّابَةُ الَّذين اشتغلوا بسبِّ الصَّحابة رضي الله عنهم لا يضرُّ الصَّحابةَ مِن سبِّهم شيءٌ؛ بل إنَّ ذلك يُعَدُّ أجرًا ومَغْنَمًا للصَّحبِ الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم، وممَّا يدلُّ عليه قولُ النَّبيِّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟**» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ له، ولا متاعَ، فقال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وقَذَفَ هَذَا، وأَكَلَ مَالَ هَذَا، وسَفَكَ دَمَ هَذَا، وضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ**

---

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١١/ ٢٧٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٨٧).

فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١) ويبقى ـ أيضًا ـ هذا بابٌ آخَر لعلوِّ منزلةِ الصَّحابة في نيل الرِّضوان سواءً فيمن تَرَضَّى عنهم، أو طَعَنَ فيهم ظُلْمًا وبغيًا؛ فإنَّ هذا الطَّاعن يُعْطِيهِمْ من حسناتِه شاءَ أم أبى كما بيَّن ذلك نبِيُّنا الكريم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ.

ثمَّ إنَّ الرِّضوانَ الَّذي يُحِلُّه الله ﷻ على أهل جنَّتِه، فلا يَسْخَطُ عليهم بعدَه أبدًا هو ثمرةٌ وأثرٌ لرضاهم عنه جزاءً مِن جنس العَمل؛ فلمَّا رَضُوا عن الله ﷯، رضيَ اللهُ عنهم.

والرِّضا الَّذي هو فعلُ العَبد، والَّذي يتقرَّبُ به إلى الله ﷻ نوعان دلَّت عليهما الأدلَّة:

❖ **النَّوع الأوَّل:** الرِّضا بالله؛ ويدلُّ عليه حديثُ العبَّاس ابن عبد المطَّلب ﵁، أنَّه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «**ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإِسْلَامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٨١).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٣٤).

وقد تضمنَّ هذا الحديث أمورًا أربعةً: الرِّضا بربوبيَّة الله عَزَّ وَجَلَّ، والرِّضا بألوهيَّتِه، والرِّضا برسوله ﷺ والانقياد له، والرِّضا بدينه والتَّسليم له.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومَنِ اجْتَمعتْ له هذه الأربعة: فهو الصِّدِّيق حقًّا، وهي سهلةٌ بالدَّعوى واللِّسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيَّما إذا جاء ما يخالف هوى النَّفس ومرادها من ذلك، تبيَّن أنَّ الرِّضا كان لسانُه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

❊ **فالرضَّا بإلهيَّته**: يتضمَّن الرِّضا بمحبَّتِه وحده وخوفِه ورجائِه والإنابةِ إليه والتَّبتُّلِ إليه وانجذابِ قوى الإرادة والحبِّ كلِّها إليه فعل الرَّاضي بمحبوبه كلَّ الرِّضا؛ وذلك يتضمَّن عبادتَه والإخلاصَ له.

❊ **والرِّضا بربوبيَّتِه**: يتضمَّنُ الرِّضا بتدبيره لعبده ويتضمَّنُ إفرادَهُ بالتَّوكُّل عليه والاستعانةِ به والثِّقةِ به والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكلِّ ما يفعل به.

فالأوَّل: يتضمَّن رضاه بما يؤمر به، **والثَّاني**: يتضمَّن رضاه بما يقدر عليه.

* **وأمَّا الرِّضا بنبيِّه رسولًا:** فيتضمَّن كمالَ الانقياد له والتَّسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقَّى الهُدَى إلَّا من مواقع كلماته، ولا يُحاكِمُ إلَّا إليه، ولا يُحَكِّمُ عليه غيرَه، ولا يرضى بحكم غيره ألبتَّة؛ لا في شيءٍ من أسماء الرَّبِّ وصفاته وأفعاله، ولا في شيءٍ من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيءٍ من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره ولا يرضى إلَّا بحكمه؛ فإن عجز عنه كان تحكيمُه غيرَه من باب غذاء المُضْطَرِّ إذا لم يجد ما يُقِيتُه إلَّا من المَيْتَة والدَّم، وأحسنُ أحواله: أن يكون من باب التُّراب الَّذي إنَّما يتيمَّم به عند العجز عن استعمال الماء الطَّهور.

* **وأمَّا الرِّضا بدينه:** فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى؛ رضي كلَّ الرِّضا ولم يَبْقَ في قلبه حرجٌ من حُكمِه وسلَّم له تسليمًا ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلِّدِه وشيخِه وطائفته»(١).

والرِّضا بالله فرضٌ افترضَه الله عَزَّ وَجَلَّ على كلِّ مسلمٍ؛ فلا إسلامَ ولا إيمانَ إلَّا به، وهو أن يرضَى به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ربًّا خالقًا مُدَبِّرًا، ويرضَى به

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٢/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

معبودًا بحقٍّ لا معبودَ بحقٍّ سواه؛ فإيَّاه يَقْصِدُ، وإليه يَلْجأ، وله يَصْرِفُ أنواعَ العبادةِ، ولا يجعلُ معه شريكًا ولا ندًّا، ولا يَتِمُّ هذا الرِّضا بالله إلَّا بالرِّضَا بدينه والرِّضا بنبيِّه ﷺ؛ ولهذا جُمعت في هذا الحديث، وهذا النَّوع من الرِّضا مُتَعَلَّقُه أسماءُ الله ﷾ وصفاتُه.

❖ **والنَّوع الثَّاني**: هو الرِّضَا عن الله ﷾؛ بما يفعله بالعبد ويعطيه إياها، وهذا مُتَعَلَّقُهُ ثوابُ الله، وأجرُه، وعطاؤُه، ومَنُّه، وعَوْنُه ﷾.

فالأوَّل ـ وهو الرِّضا بالله ـ أصلٌ، والثَّاني ـ وهو الرِّضا عن الله ـ فرعٌ عنه، الأوَّل فرضٌ باتِّفاق أهل العلم، والثَّاني وإن كان من أجلِّ الأمور وأشرف أنواع العبودية فلم يُطالب به العموم لعجزهم عنه ومشتقه عليهم وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضا به، والتَّحقيق أنَّ الواجب في مثل هذا المقام هو الصَّبر، والرِّضا مُستحَبٌّ، ومَنْ أكرمَهُ الله ﷿ في هذا المقام بتحقيق الرِّضا فازَ فوزًا عظيمًا.

ولعلَّ من المُسْتَحْسَنِ أنْ أَخْتِمَ هذه الرِّسالةَ بمقطَعٍ جميلٍ جدًّا من ميميَّة العلَّامة ابن القيِّم ﵀ لَمَا لها من تعلُّقٍ بموضوعنا،

ولما لها ـ أيضًا ـ من أثرٍ عظيمٍ، ونفعٍ، وفائدةٍ، قال ﵀:

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّهَا   مَنازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا المخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ العَدُوِّ فَهلْ تُرَى   نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلَّمُ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الغَرِيبَ إِذَا نَأَى   وَشَطَّتْ به أَوْطَانُهُ فَهُوَ مُؤْلَمُ
وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُربَتِنَا الَّتِي   لَهَا أَضْحَتِ الأَعْدَاءُ فِينَا تَحَكَّمُ
وَحَيَّ عَلَى رَوْضَاتِهَا وَخِيَامِهَا   وَحَيَّ عَلَى عَيْشٍ بِهَا لَيْسَ يُسْأَمُ
وَحَيَّ عَلَى السُّوقِ الَّذِي فِيهِ يَلْتَقِي   الْمُحِبُّونَ ذَاكَ السُّوقُ لِلقَومِ يُعلَمُ
فَمَا شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بِلا ثَمَنٍ لَهُ   فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجَارُ فِيهِ وَأَسْلَمُوا
وَحَيَّ عَلَى يَوْمِ المَزِيدِ الَّذِي بهِ   زِيَارَةُ رَبِّ العَرْشِ فَاليَوْمَ مَوْسِمُ
وَحَيَّ عَلَى وَادٍ هُنَالِكَ أَفْيَحٍ   وتُرْبَتُهُ مِنْ أَذْفَرِ المِسْكِ أَعْظَمُ
مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ هُنَاكَ وَفِضَّةٌ   وَمِنْ خَالِصِ العِقْيَانِ لا تَتَقَصَّمُ
وَمِنْ حَوْلِهَا كُثْبَانُ مِسْكٍ مَقَاعِدٌ   لِمَن دُونَهُمْ هَذَا العَطَاءُ المفَخَّمُ
يَرَوْنَ به الرَّحْمَنَ جَلَّ جَلاَلُهُ   كُرُؤْيَةِ بَدْرِ التَّمِّ لا يُتَوَهَّمُ
وَالشَّمْسُ صَحْوٌ لَيْسَ مِنْ دُونِ   أُفْقِهَا سَحَابٌ وَلاَ غَيمٌ هُنَاكَ يَغَيِّمُ

فَبَيْنَا هُمُ فِي عَيْشِهِم وَسُرُورِهِم   وَأَرْزَاقُهُم تجرِي عَلَيهِمْ وتُقْسَمُ
إِذَا هُمْ بِنُورٍ سِاطِعٍ قَدْ بَدَا لَهُمْ   سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمُ وَنَعِمْتُمُ
يَقُولُ سَلُونِي مَا اشْتَهَيْتُمْ فَكُلُّ مَا   تُرِيدُونَ عِنْدِي إِنَّنِي أَنَا أَرْحَمُ
فَقَالُوا جَمِيعا نَحْن نَسْأَلُكَ الرِّضَا   فَأَنْتَ الَّذِي تُولِي الجَمِيلَ وتَرْحَمُ
فيُعْطِيهِمُ هَذَا ويُشْهِدُ جَمْعَهَمْ   عَلَيهِ تَعَالى اللهُ فَاللهُ أَكْرَمُ
فَبِاللهِ مَا عُذْرُ امْرِئٍ وَهُوَ مُؤْمِنٌ   بِهَذَا وَلا يَسْعَى لَهُ وَيَقَدِّمُ
وَلَكِنَّمَا التَّوْفِيقُ بِاللهِ إِنَّهُ   يَخُصُّ بِهِ مَنْ شَاءَ فَضْلا وَيُنْعِمُ

* * *

وأسألُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرش العظيم بأسمائه الحسنَى وصفاتِه العليا أن يتفضَّل علينا أجمعين، ويُنعِمَ بالتَّوفيق لما يُحبُّه ويرضَاه؛ من سَديد الأقوال وصَالح الأعمال، وأن يجعلَنا منَ الفائزين ممَّن ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [سُورَةُ التَّوۡبَةِ].

وصلَّى الله وسلَّم وبارَكَ على رسوله نبيِّنا مُحمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين(١).

* * *

---

(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرةٌ ألقيتُها في الجامعة الإسلاميَّة في (١٣/ ٥/ ١٤٣٢هـ)، وقد فُرِّغت من الشَّريط وأَجْرَيْتُ عليها بعض التَّعديلات اليسيرة، والله وحدَه الموفِّق لا شريك له.